علاقة الرستميين بالإمارة الأموية في الأندلس

د.عبد القادر بوباية(*)

مقدمة: ***بمبايعة عبد الرحمن بن رستم بالإمامة سنة 160هـ/ 776م، تأسست الدولة الرستمية التي تُعد أول دولة مستقلة عن الخلافة العباسية تقوم في بلاد المغرب، ومنذ قيامها تميزت هذه الدولة بشخصيتها على أنها دولة ذات سيادة على أراضيها وعلى السكان القاطنين تحت سمائها، كما أصبح من حقها أن تساهم بدورها في العلاقات الدولية، تلك العلاقات التي جنى الرستميون من ورائها مكاسب كثيرة ستكون لها آثار بعيدة المدى في تدعيم أركان دولتهم، لأنها أتاحت لهم مزيداً من الاحتكاك بالدول المجاورة لهم وفي جميع المجالات.***

تنوعت العلاقات الخارجية للدولة الرستمية بحكم المصالح المشتركة و"بحسب مواقف الدول المجاورة، قوة وضعفاً، صداقة وعداء[1]". وسأحاول من خلال هذه المداخلة المتواضعة تسليط الضوء على علاقة الرستميين بالدولة الأموية في الأندلس في جميع الميادين والمجالات، إضافة إلى إبراز الدور الذي لعبه بعض أعلام الرستميين في التطور السياسي والازدهار الحضاري الذي عرفته شبه الجزيرة الإيبرية.

---

* أستاذ محاضر في تاريخ المغرب الإسلامي ـ قسم التاريخ وعلم الآثار ـ جامعة وهران

(1) الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ـ محمد عيسى الحريري ـ دار القلم للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ ط3 ـ 1408 هـ/ 1987م ـ ص 187.

علاقة الرستميين بالدولة الأموية في الأندلس:

قامت العلاقات بين الدولة الأموية في الأندلس والرستميين على أسس التحالف المتين والصداقة المتبادلة، وقد بدأت العلاقات بين الطرفين في وقت مبكر حيث إن مؤسس الدولة الأموية بالأندلس، وهو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك حين فرّ من العباسيين لجأ إلى المغرب الأوسط وأقام بين بني رستم الذين حافظوا عليه وأجاروه من الأخطار التي كانت تواجهه، وهو الأمر الذي يؤكده مؤلف كتاب "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" حين يقول: "وآل أمره في سفره (أي عبد الرحمن بن معاوية) إلى أن استجار ببني رستم ملوك تيهرت من المغرب الأوسط[2]

إن تعبير المقري الذي نقله عن ابن عبد الحكم يؤكد أن قبائل المغرب الأوسط التابعة مذهبياً لبني رستم هي التي قدمت يد المساعدة لعبد الرحمن الداخل مؤسس الدولة الأموية في الأندلس 138هـ/ 755م [3].

كان من الطبيعي إذن أن يتم التآلف بين أمراء بني أمية في قرطبة وبين الأئمة الرستميين في تاهرت وتقوم العلاقات بين الدولتين على أساس من الصداقة والتحالف والمودة إذ كان الأمويون في الأندلس محطّ عداء العباسيين ومكائدهم كما كان العباسيون أيضاً أعداء للإباضيّة في تاهرت، لأنهم كانوا يعتبرون بلاد المغرب كلها ميراثاً شرعياً تركه الأمويون لهم وعلى هذا الأساس نظروا إلى الدولة المستقلة عنهم نظرة عداء باعتبار مؤسسيها قاموا باقتطاع أجزاء من ممتلكات العباسيين.

ومما دفع أمراء بني أمية إلى توطيد علاقتهم بالرستميين أنه لم يعد أمامهم من منفذ إلى بلاد المغرب سوى المغرب الأوسط لأنّ المغرب الأدنى (إفريقية) قامت فيه دولة الأغالبة الموالية للعباسيين والمغرب الأقصى فيه دولة الأدارسة الشيعية التي كانت علاقتها بالأمويين في الأندلس تتسم بالعداء[4]، وبقيام هاتين الدولتين أوصدت جميع المنافذ والسبل في وجه الإمارة الأموية الفتية، وبذلك أصبحت الدولة الرستمية هي الشريان الحيوي الوحيد الذي بإمكانه تغذية تلك الإمارة بالحياة، والتعاون معها سياسياً واقتصادياً وحضارياً[5]

وفي إطار التعاون السياسي بين الدولتين، ارتبطت كل منهما بالأخرى ارتباطاً وثيقاً،

---

(2) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ــ أبو العباس أحمد المقرّي ــ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ج4 ص 28.

(3) العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ــ جودت عبد الكريم يوسف ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر ــ 1984 ــ ص 127.

(4) تاريخ المغرب الكبير ــ العصر الإسلامي ــ ج2 ــ السيد عبد العزيز سالم ــ دار النهضة العربية ــ بيروت ــ 1981 ــ ص 569.

(5) بلاد الجزائر ــ تكوينها الإسلامي والعربي ــ إبراهيم العدوي ــ مكتبة الأنقلو مصرية ــ القاهرة ــ 1970 ــ ص 220

وكـــان زعماء كل دولة يتابعون نشاط الدولة الأخرى بإعجاب بالغ، وقد استقبل الرستميون كما ذكر مؤرخوهـــم كـــبار رجال الأندلس الذين وفدوا إلى تاهرت واستوطنوها، وأصبح البعض منهم يساعد بعـــض الأئمة في شؤون الإدارة والحكم، ومن أبرز هؤلاء شخصيتان كانتا في تاهرت عند وفاة عبد الرحمن بن رستم هما مسعود الأندلسي وعمران بن مروان الأندلسي، وكان الإمام قبل وفاته قد جعل الإمامـــة شـــورى بيـــن ســـبعة من رجال الدولة الرستمية ممَّن توسّم فيهم الصّلاح والعلم والتقوى والـــورع، ومـــنهم مسعود الأندلسي وعمران بن مروان الأندلسي، ويقول المؤرخون أنهم أي السبعة أجمعوا رأيهم على اختيار أحد اثنين: مسعود الأندلسي أو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم، ثمَّ مال أكثر المرشحين للإمامة ومعهم العامة إلى تولية مسعود الأندلسي[6]، ولكن هذا الأخير غاب عن الحضـــور يـــوم البـــيعة، وجعل الإمامة تؤول إلى عبد الوهاب بن عبد الرحمن، ويدلّ هذا على أن شخصية أندلسية كانت على وشك اعتلاء سدّة الحكم في تاهرت، ومما يؤكد المكانة الراقية التي كان يحتلها مسعود الأندلسي عبارة أوردها الدرجيني تنص على أنه، أي مسعود "تقدم فبايع عبد الوهاب، وبايعـــه الـــناس بعـــد ذلك"، وهو الأمر الذي يدل على مكانة هذا الأندلسي المؤثرة في عامة الدولة الرستمية[7]، كما يدل أيضاً على أنه من قدماء سكان تاهرت ومعتنقي المذهب الإباضي.

ظلت الدولتان تسعى كل منهما إلى كسب صداقة الأخرى، وقد قامت بينهما علاقة سياسية متينة، وهناك عدة حوادث تدل عليها، وقد بدأت في الظهور منذ بداية عهد الإمام عبد الوهاب (*171 ــ 211هـ/787 ــ 826م*) وفـــي هذا الإطار ذكر ليفي بروفنسال أن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاويـــة المعـــروف بالبلنســـي قد حلّ بتاهرت في عهد الإمام عبد الوهاب[8]، وتشير الأحداث التي سبقت خروجه من الأندلس إلى أن قدومه إلى تاهرت لم يكن عفوياً بل كان من أجل تحقيق غاية ما.

عـــند وفاة عبد الرحمن الداخل كان ابنه هشام بماردة وسليمان ــ ابنه الآخر ــ بطليطلة، وكـــان صقر قريش قد أوصى ابنه عبد الله قبل وفاته بأن يلقي بالخاتم والأمر لمن يسبق من أخوته؛ "فـــإن سبق إليك هشام فله فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه، وإن سبق إليك سليمان فله فضل ســـنه ونجدته وحب الناس له[9]، وقد سبق هشام أخاه ففاز بالإمارة، وثار سليمان يطالب بأحقيته في الإمـــارة لعـــامل السن فآزره عبد الله؛ فثار معه وحارب هشام أخويه إلى أن طلب سليمان الأمان؛

---

(6) *محمـــد عيسى الحريري ــ نفس المرجع ــ ص 109 / طبقات المشائخ بالمغرب ــ الدرجيني ــ تحقيق إبراهيم طلاي ــ مطبعة البعث ــ قسنطينة ــ 1384هـ/ 1974م ــ ج1 ــ ص 46.*

(7) *جودت عبد الكريم يوسف ــ نفس المرجع ــ ص ص 128 ــ 129.*

(8) *Histoire de l'Espagne musulmane-E.Lèvy Provencal- G.P.Maisonneuve-Paris-1950-t.1p.108*

(9) *تاريخ إسبانيا الإسلامية ــ ابن الخطيب لسان الدين ــ تحقيق ليفي بروفنسال ــ مطبوعات دار المكشوف ــ بيروت ــ ط2 ــ 1956 ــ ص 11.*

"فاشترط عليه الأمير هشام الخروج من الأندلس ويعطيه ستين ألف دينار[10]"؛ فركب سليمان البحر بأهله وولده إلى ساحل المغرب[11]، ويضيف ابن خلدون أنّ عبد الله سار معه، ونزل الأخوان في بلاد المغرب؛ فأقام سليمان بطنجة، بينما خرج عبد الله متجولاً بين دول المغرب الإسلامي؛ فاتصل "بابن الأغلب صاحب إفريقية وخاطبه في مشروعهما[12]، ويبدو أنه لم يلق رداً إيجابياً، فانتقل إلى تاهرت، واتصل بالإمام عبد الوهاب بهدف الحصول على مساعدة رستمية، ولكن الإمام الرستمي لم يستجب لمطالبه، لأنه كان يَعدُ أن نزاع الإخوة الأمويين مسألة داخلية، كما أنه يريد الحفاظ على العلاقة الودية مع السلطة القائمة بالأندلس.

لقد حافظ عبد الوهاب بموقفه هذا من الثائرين على الإمارة الأموية في قرطبة على العلاقات الطيبة القائمة بين الرستميين والأمويين.

ظلت الدولتان تسعى كل منهما إلى كسب صداقة الأخرى، ففي سنة 207هـ/ 822م بعث الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم أبناءه الثلاثة وهم دحيون وعبد الغني وبهرام[13] في سفارة رسمية إلى قرطبة[14]، وكان يوم وصول هذه السفارة الرستمية إلى قرطبة يوماً عظيماً مشهوداً حيث استقبلهم عبد الرحمن الثاني في غاية الاحتفال والإكرام، ويذكر ابن سعيد المغربي أن الأمير الأموي قد "انفق ألف دينار[15]" حتى أصبح ذلك حديث الناس ومصدر إعجابهم[16]، ومن المرجّح أن هذه السفارة كانت تسعى إلى تحقيق جملة من الأهداف ومنها توثيق العلاقات الودية بين الدولتين وتأكيد دعم وتأييد تاهرت لقرطبة في مواجهتها للثائرين عليها، إضافة إلى دعمها في مواجهة هؤلاء الخارجين عليها، وما يؤكد ذلك ما ذكره ابن سعيد وغيره من المؤرخين من أن بشر بن عبد الملك قد أشار على عبد الرحمن "باصطناع البربر واتخاذ العبيد ليستعين بهم على العرب[17]، ومن هنا يظهر أن مهمة أبناء عبد الوهاب في قرطبة كانت تتمثل في مرافقة قوة من البربر قدمت من المغرب الأوسط عامة، ومن منطقة تاهرت بشكل خاص.

لقد كشفت بعض المصادر وجود شخصيات رستمية بارزة في الأندلس، ومن أبرزها سعيد

---

(10) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ــ ابن عذاري المراكشي ــ تحقيق ج س كولان وليفي بروفنسال ــ دار الثقافة ــ بيروت ــ 1400هـ/ ج2 ــ ص 63.

(11) لسان الدين ابن الخطيب ــ نفس المصدر ــ ص 11/ ابن عذاري ــ نفس المصدر ــ ج2 ص 63.

(12) العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ــ ابن خلدون عبد الرحمن ــ دار الكتاب اللبناني ــ مكتبة المدرسة ــ بيروت ــ 1983م ــ ج7 ــ ص 270.

(13) تاريخ المسلمين في الأندلس ــ السيد عبد العزيز سالم ــ دار المعارف ــ بيروت ــ ط1 ص 220.

(14) E.Levi provençal – opcit-t.1-p.171.

(15) الخوارج في الأندلس ــ محمد مكي ــ مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ــ العدد الأول ــ تطوان ــ 1956 ــ ص 172.

(16) المغرب في حل المغرب ــ ابن سعيد المغربي ــ تحقيق زكي محمد حسين وآخرون ــ كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ــ القاهرة ــ 1953 ــ ج2 ص 246.

(17) إبراهيم العدوي ــ نفس المرجع ــ ص 222.

بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم وابنه محمد وعبد الرحمن بن رستم ورابع يدعى القاسم؛ فقد ذكر ابن الأبار في كتاب الحلة السيراء نسب محمد كاملاً حيث قال إنه: "محمد بن سعيد بن محمد بن عبد الرحمن بن رستم، وهو من موالي الغمر بن يزيد بن عبد الملك[18].

يذكر ابن الأبار أن محمد بن رستم كان أديباً، لاعباً بالشطرنج، شاعراً، وقد ورث هذه العلوم عن بيته الرستمي[19]، وهو الأمر الذي جعل عبد الرحمن الثاني يصطنعه" في إمارته على شذونة من قبل أبيه الحكم، وتطورت العلاقة بين محمد بن رستم وعبد الرحمن بن الحكم؛ فاطمأن هذا الأخير لمحمد ووثق فيه، ولما أفضت الإمارة إليه استقدمه إلى قرطبة واستعان به، وعينه عاملاً له على ثغر طليطلة، ويؤكد ابن عذاري عند كلامه على ثورة هشام الضرّاب سنة 214هـ/ 829 ـ 830م؛ فذكر أنه قد "توافت الجنود لمحمد بن رستم عامل الثغر[20]، وتقدم ابن رستم بهؤلاء الجنود، والتقى بهاشم الضرّاب فقتله ومن معه، وكانوا آلافا في نواحي لورقة[21].

ظهرت مقدرة محمد بن رستم العسكرية ثانية في عام 230هـ/ 844م عندما هاجم النورمانديون (المجوس) إشبيلية، حيث ذكر العذري (من مؤرخي وجغرافي القرن 5هـ/ 11م) أن عبد الرحمن بن الحكم أرسل قوّاده: عبد الله بن المنذر وعيسى بن شهيد والإسكندراني وعبد الرحمن بن كليب لمواجهتهم، ويبدو أن هؤلاء قد فشلوا في صدّ الهجوم، واتصل ذلك بالأمير عبد الرحمن؛ "فأخرج محمد بن سعيد بن رستم؛ فمضى من فوره إلى ذلك فيمن ضمّ إليه من الأجناد حتّى نزل حاضرة إشبيلية؛ فخرج المجوس إليه وقابلوه في المدينة، واستمرّ القتال أياماً بينهما، وكادت الهزيمة تلحق بالمسلمين؛ "فترجّل محمد بن رستم، وترجّل الناس معه، وأدخل الرجال بين العدو والنهر الأعظم؛ فحالوا بينهم وبين المراكب؛ فانهزم المجوس[22]".

ومن هذا الكلام يتضح بجلاء الدور الكبير الذي لعبه ابن رستم حيث كان سبباً في إلحاق الهزيمة بالمجوس، وذلك بفضل إقدامه ودهائه، وهو ما يعطيه شرف النصر المحقق على النورمانديين، كما يؤكد هذا الكلام المكانة التي كان يحتلها الرستميون عامة ومحمد بن رستم خاصة في البلاط القرطبي، وهناك عبارات أخرى تؤكد هذه المكانة، ومنها قول ابن حيان "محمد بن سعيد بن رستم الوزير الحاجب[23]" وأخوه القاسم قبله[24] وعبارة ابن الأبار التي تنص على أن عبد

---

(18) ابن سعيد المغربي ـ نفس المصدر ـ ج2 ـ ص 60/ المقري ـ نفح الطيب ـ ج1 ص 333.

(19) الحلة السيراء ـ ابن الأبار القضاعي ـ تحقيق حسين مؤنس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ط1 ـ 1963 ـ ج2 ص 372.

(20) نفس ـ ج2 ص 373.

(21) ابن عذاري المراكشي ـ نفس المصدر ـ ج 2 ص 83.

(22) نفسه ـ ج2 ص 83/ السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين في الأندلس ـ ص 230.

(23) ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ـ العذري أحمد بن عمر بن أنس ـ تحقيق عبد العزيز الأهواني ـ مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ 1965 ص 99 ـ 100.

الرحمـــن استقدمه و"صرفه في الحجابة والوزارة[25]، وتوفي محمد بن سعيد بن رستم في صفر سنة 235هـ/ 849م.

شـــهد بـــلاط الأمويـــن في الأندلس بروز عدد من رجالات السياسة من الرستميين الذين تمكـــنوا مـــن اعتلاء منصب الوزارة والحجابة في دولتهم، وفي هذا الشأن يقول ابن القوطية، وهو يتكلم عن عبد الرحمن بن الحكم: "وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده مثلهم بعد عبد الكريم بـــن مغيث الحاجب الكاتب المتقدم ذكره، فمنهم عيسى بن شهيد ويوسف بن بخت وعبد الله بن أمية بن زيد وعبد الرحمن بن رستم[26]، وقد تولى عبد الرحمن بن رستم منصب الحجابة، وهو ما يؤكده ابن القوطية حيث يقول: "ثمَّ مات عبد الرحمن بن غانم؛ فصارت الحجابة بين عيسى بن شهيد وعبد الرحمن بن رستم[27]".

نلاحـــظ مـــن خلال ما سبق أن عبد الرحمن بن رستم كان شخصية مرموقة في قرطبة، والدليل على ذلك هو توليه لمنصب هام كالحجابة، وبصفته وزيراً كان يشارك في المجلس الشوري للأمير الأموي؛ فيقدم له النصائح والآراء، وكان عبد الرحمن بن الحكم بحاجة إلى تلك الآراء، وفي ذلـــك يقول ابن القوطية: إنه أي عبد الرحمن الثاني كان "أول من رتب اختلاف الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي[28]".

نمت العلاقة الرستمية الأندلسية في عهد أفلح بن عبد الوهاب (211 ــ 240هـ/ 826 ــ 854م) نمواً مضطرداً، وكان حكام كلتا الدولتين يُبلغ الآخر بأخبار الانتصارات، ويبادله الهدايا بهذه المناســبات، وحـــدث ذلك حين قام الأغالبة في عهد أبي العباس محمد بن الأغلب ببناء مدينة قرب تاهـــرت ســـموها العباســـية، وذلـــك ســـنة 227هـ/ 841م، وكان الهدف من بنائها تهديد عاصمة الرستميين والتأثير على مركزها الاقتصادي والسياسي، ولذلك قام الإمام الرستمي بهدمها وإحراقها، وبادر بإخبار حليفه عبد الرحمن بما فعل؛ فأرسل إليه هذا الأخير هدية كبيرة قدرها المؤرخون بمئة ألف دينار[29].

وقد أصبح تبليغ أخبار الانتصارات بين حكام الدولتين تقليداً سياسياً مألوفاً، حيث بادر عبد الرحمن بن الحكم، واعترافاً منه بدور الرستميين في هزيمة المجوس (النورمانديين) بإبلاغ خبر ذلك

---

(24) المقتـــبس من أنباء أهل الأندلس ــ ابن حيان القرطبي ــ تحقيق محمود علي مكي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ 1393 هـ/ 1973م ــ ص 372.

(25) ابن الآبار ــ نفس المصدر ــ ج2 ص 372.

(26) تاريخ افتتاح الأندلس ــ أبو بكر بن القوطية ــ تحقيق إسماعيل العربي ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر ــ 1989 ــ ص 59.

(27) نفسه ــ ص 59.

(28) نفسه ــ ص 59.

(29) إبراهيم العلوي ــ نفس المرجع ــ ص 222 ــ 223.

النصـــر إلى حليفه الرستمي أفلح بن عبد الوهاب، وردّ عيه هذا الأخير بأن هنأه على ذلك عام 230 هـــ/ 844م [30]، كما ذكر ابن سعيد المغربي أن الأمير الأموي "لم يشغله النعيم عن وصل البعوث إلـــى دار المغـــرب[31]، وعلى الرغم من أن ابن سعيد لم يذكر الهدف من هذه البعوث، إلا أنه يمكن القول إنها لم تكن تحمل صبغة عسكرية موجهة ضد القيروان، والأرجح أنها كانت تهدف إلى تمتين العلاقـــات بالإمـــارات الموالـــية أو المتحالفة مع قرطبة، إضافة إلى العمل على جلب ما تحتاج إليه الأندلـــس خاصة أن حكامها كانوا يواجهون في هذه الأوقات أوضاعاً داخلية صعبة ميزتها الثورات والفتـــن العديـــدة التـــي قام بها العرب والبربر، إضافة إلى التحرّشات التي كان يقوم بها النصارى المدعّمون من قبل مملكة الفرنجة.

إذا كانـــت الدولة الرستمية قد منحت بعض رعايا الدول التي تختلف معها سياسياً ومذهبياً حق اللجوء السياسي، وأعطتهم كل ألوان الحماية؛ فإنها لم تكفل مثل هذا الحق للخارجين على الدولة الأموية، ولم تسمح لهم بالقيام بأي نشاط سياسي ضد حلفائهم الأمويين في الأندلس، وفي الوقت نفسه منحت الدولة الرستمية حق الاستيطان والإقامة لكل أندلسي وفد إليها للتجارة أو العمل دون الإضرار بالعلاقـــات الطيبة المتوطدة بين الدولتين، ويروي لنا ابن القوطية قصة طريفة تبين لنا مدى حرص الرســـتميين على توثيق هذه العلاقات، وحمايتها من كل ما يعكر صفوها، وتتعلق هذه القصة بالثائر عمـــر بن حفصون الذي فرّ إلى تاهرت، واختفى بها استعداداً للعمل ضد الأمويين، واشتغل مساعداً لأحـــد الخيّاطيـــن الذين وفدوا على تاهرت من مدينة ريّة بالأندلس ضمن الوافدين من أهل هذا البلد الإسلامي رغبة في متابعة نشاطهم الاقتصادي، وبينما كان عمر جالساً عند الخياط، جاء شيخ ومعه ثـــوب؛ فقام إليه الخياط ووضع له كرسياً؛ فقعد عليه، وسمع الشيخ كلام ابن حفصون فأنكره، وقال للخـــياط: من هذا؟ فقال: غلام من جيراني بريُّة أتى ليخيط عندي؛ فالتفت الشيخ إليه، وقال له: متى عهـــدك بـــريُّه؟ قال له: أربعين يوماً، قال: تعرف جبل ببشتر؟ فقال له: أنا ساكن عند أصله، قال له الشيخ: فيه حركة؟ قال: لا، قال قد أذهله ذلك، ثمَّ قال: هل تعرف فيما يجاوره رجل يقال له عمر بن حفصـــون؟ فذعر من قوله، وأحَدَّ الشيخ النظر إليه، وكان ابن حفصون قد أفضى الثنية؛ فقال له: يا مـــنحوس تحارب الفقر بالإبرة، ارجع إلى بلدك؛ فأنت صاحب بني أمية وسيلقون منك غياً وستملك ملكاً عظيماً، فقام من فوره، وذلك خوفاً من انتشار الأمر، وأن يقبض عليه بنو أبي اليقظان [ابنّ أفلح (241 ـــ 281هـــ/ 855 ـــ 894م)]... فـــأخذ خبزتيـــن مـــن خباز وألقاها في كُمِّهِ وخرج فأتى الأندلس[32].

من خلال هذا النص نلاحظ بوضوح موقف الرستميين من ابن حفصون ومن قرطبة على وجه الخصوص، فهم لم يعملوا على دعم أي ثائر ضد الدولة الأموية، وهو الموقف نفسه الذي وقفه

(30) Levi provençal-op.cit-T1-P.156

(31) ابن سعيد المغربي ـــ نفس المصدر ـــ ج2 ص 46.

(32) ابن القوطية ـــ نفس المصدر ـــ ص 77 ـــ 78.

الرستميون سابقاً مع عبد الله البلنسي.

لم تذكر المصادر التي بين أيدينا شيئاً عن العلاقة بين تاهرت وقرطبة بعد وفاة الأمير محمد بن عبد الرحمن حيث تولى الأمر بعده ابنه المنذر (273 ـ 276هـ/ 886 ـ 888م)، ولم تطل أيامه؛ فانتقل أمر الأندلس إلى أخيه عبد الله بن محمد (275 ـ 300هـ/ 888 ـ 912م)، وتميز عهده بكثرة الثوار عليه؛ فمنهم المولدون كابن حفصون ودسيم بن إسحاق، ومنهم البربر كبني موسى بن ذي النون، ومنهم العرب كإبراهيم بن حجاج الذي استقلّ بإشبيلية وقرمونة[33] ونظراً لهذه الأوضاع المتردية، كان حاكم قرطبة بحاجة إلى تأييد تاهرت ومساعدتها، وعلى الرغم من عدم وجود أدلة تؤكد الاتصال بن الطرفين إلا أنه من المحتمل جداً أن العلاقة الطيبة قد استمرت بين العاصمتين، ولكن المؤرخين لم يشيروا إليها لأنهم ركزوا جلّ اهتمامهم على مجريات الأوضاع الداخلية، وبخاصة على الثورات التي قامت في شتى نواحي البلاد.

نظرا للظروف العصيبة التي كانت تمر بها الإمارة الأموية في الأندلس؛ فإنها لم تكن قادرة على تقديم أية مساعدة للرستميين عندما داهمهم جيش أبي عبد الله الذي تمكن من القضاء على الإمامة الرستمية في تاهرت في ظرف زمني وجيز، حيث خرج من إفريقية في 15 رمضان 296 هـ (ليلة 8 جوان 909م)، ووصل إلى تاهرت في 6 شوال 296 هـ الموافق لـ 28 جوان سنة 909م، وما يفسر هذه السرعة في القضاء عليها هو تدهور الأوضاع الداخلية في عاصمة الرستميين بسبب الفتن والقلائل التي ميزت عهد آخر أئمتها، ويتعلق الأمر بـ "يقظان بن أبي اليقظان" (294 ـ 296هـ/ 906 ـ 909م)، وقد مكنت هذه الأوضاع أبا عبد الله الشيعي من دخول تاهرت واستباحتها ونهبها، وإحراق جزء هام من المؤلفات التي كانت تحويها المكتبة المعروفة بالمعصومة[34].

لم تكن العلاقات السياسية هي كل ما يربط الرستميين بالإمارة الأموية في بلاد الأندلس، بل قامت بين الدولتين علاقات اقتصادية وثيقة، وتتمثل خاصة في المبادلات التجارية، ومما ساعد نموها تلك التسهيلات التي منحها الرستميون للتجار القادمين من الأندلس، حيث فتحت أمامهم الطريق إلى سائر العالم الإسلامي، وقد قويت العلاقة التجارية في ظل حاجة الأمويين بالأندلس إلى مختلف المنتجات وبخاصة الزراعية منها نظراً للفتن والثورات التي قامت خلال فترة هذه الدراسة، والتي حالت دون تحقيق الأندلسيين للاكتفاء الغذائي إضافة إلى أن الأندلسيين كانوا في حاجة إلى أسواق خارجية لتصريف المنتجات الفائضة عن حاجتهم.

فتح الرستميون الموانئ التابعة لهم في كل من تنس التي بنى القسم الحديث منها جماعة

---

(33) ابن عذاري ـ نفس المصدر ـ ج2 ص 122/ ابن القوطية ـ نفس المصدر ـ ص 83 وما بعدها.

(34) الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الأباضية ـ الباروني ـ مطبعة الأزهار البارونية ـ د.ت ـ ج2 ص 293.

مـــن البحريين الأندلسيين من أهل إلبيرة وأهل تدمير في سنة 262هـ/ 872م [35]، ومرسى فروخ (الدجـــاج) ووهران التي بناها جماعة من الأندلسيين في عام 290هـ[36] لاستقبال البضائع الأندلسية ولا ســيما المنسوجات الحريرية، كما قاموا بدور الوسيط في نقل هذه المنتجات وتصريفها في بلاد الســودان ومصر وبلاد المشرق الأخرى، كما أن الرستميين كانوا يزودون الأندلسيين بسلع مختلف كـــانوا فـــي حاجة إليها وبخاصة المنتوجات الزراعية والعبيد، وبذلك أصبحت الدولة الرستمية سنداً قويـــاً للإمارة الأموية في عمليات التصدير والاستيراد، وتزويدها بكل ما تحتاج إليه، ونتج عن ذلك نشاط الأساطيل التجارية الأندلسية، وازدهار المدن والموانئ الرستمية والأندلسية على حدّ سواء[37].

وصاحب هذه العلاقات السياسية والاقتصادية روابط ثقافية هامة بين الرستميين والأمويين في الأندلس، إذ أصبحت الدولة الرستمية الجسر الذي ضمن استمرار التدفق الحضاري من المشرق إلـــى بـــلاد الأندلس، وعن طريق الرستميين نجح أمراء بني أمية في الأندلس في الحصول على ما يحـــتاجون إلـــيه مـــن كنوز المشرق ومؤلفاته وكذا علمائه، وبذلك فإن حكام تاهرت قد قاموا بدور الوسيط الثقافي حيث أخذوا عن المشرق وأعطوا للأندلس.

نتـــيجة لهـــذا الدور الثقافي الذي اضطلع به الرستميون، ظهرت مؤثرات إباضية في بلاد الأندلـــس إذ إنه من الطبيعي أن تترك هذه العلاقات القوية آثارها في الشعب الأندلسي، وإن لم يكن لهـــا مـــن القوة ما يظهرها بشكل واضح نتيجة لسيطرة العقيدة السنية المطلقة على الأندلسيين، وقد ظهرت هذه التأثيرات في مناطق الاحتكاك التجاري بين الرستميين والأمويين في قرية بلفين (منطقة ألمـــرية) التـــي كان أهلها على مذهب الخوارج[38]، وكان أحد المعلمين في قرطبة، واسمه جابر بن غيـــث اللبلي يعلم أبناء الوزير هشام بن عبد العزيز، وكان هذا المعلم كثير التشدّد حتّى إنه كان في صرامته يقارب الإباضية[39].

وإلـــى الأندلـــس رحـــل كثير من علماء الدولة الرستمية، يسمعون على علمائها ويروون عنهم، ومن هؤلاء قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي الذي يقول عنه الحميدي إنه: "دخل الأندلس وكان مـــن جلساء بكر بن حماد التاهرتي وممن أخذ عنه، وهو والد أبي الفضل أحمد بن قاسم الذي يروي عنه أبو عمر بن البر[40]".

---

(35) المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ــ البكري أبو عبيد ــ نشر البارون دوسلان ــ مطبعة الحكومة العامة ــ الجزائر ــ 1857م ــ ص 70.

(36) المدن المغربية ــ إسماعيل العربي ــ المؤسسة الوطنية للكتاب ــ الجزائر ــ 1984 ــ ص 140.

(37) إبراهيم العدوي ــ نفس المرجع ــ ص 220 ــ 221.

(38) محمود مكي ــ الخوارج في الأندلس ــ ص 175.

(39) نفسه ــ ص 173.

(40) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ــ الحميدي أبو عبد الله ــ تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ــ دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ ط1 ــ 1417هـ ــ 1997م ــ ص 299.

ومـــنهم أحمد بن قاسم بن عبد الرحمن التاهرتي البزاز أبو الفضل، ويقول عنه الحميدي: "ولـــد بـــتاهرت وأتـــى مـــع أبيه صغيراً إلى الأندلس، وقال أبو عمر بن عبد البر سمع أبو الفضل التاهرتـــي مـــن ابن أبي دليم وقاسم بن أصبغ ووهب بن مسرة ومحمد بن معاوية القرشي وأبي بكر الديـــنوري، وكان ثقة فاضلاً، اختصّ بالقاضي منذر بن سعيد البلوطي وسمع منه تواليفه كلها، قال أبو عمر: وقد لقيته وسمعت كثيراً منه". ويضيف الحميدي قائلاً: "أخبرنا أبو عمر يوسف بن عبد الله الـــنمري، قـــال: حدثنـــي أحمد بن قاسم التاهرتي بكتاب "صريح السنة" لأبي جعفر محمد بن جرير الطـــبري وبكتاب "فضائل الجهاد" له وبرسالته إلى أهل طبرستان المعروفة بالتبصير" عن أبي بكر أحمد بن الفضل الدينوري عن الطبري[41]".

ومنهم بكر بن حماد، وهو أبو عبد الرحمن بكر بن حماد بن سمك بن إسماعيل الزناتي أو التاهرتـــي (*200 ــ 296*هـــ/ *816 ــ 909*م) الـــذي نشـــأ بتاهرت، وأخذ عن علمائها، والتحق بالقيروان سنة *217* هـــ فأخذ بها عن الشيخ سحنون وعون بن يوسف، ثمَّ انتقل إلى المشرق وطاف بحواضـــره العلمية، وتزود منها بعلوم الدين والحديث واللغة والأدب، ثمَّ عاد إلى القيروان، وانتصب لإمـــلاء الحديث، كما كان يملي قصائده الشعرية الرائعة[42]، ويقول عنه أبو عبيد البكري: "كان ثقة مأمونـــاً حافظـــاً للحديث"، وقال عنه ابن عذاري: "كان عالماً بالحديث وتمييز الرجال وشاعراً مفلقاً تصـــدر بجامع القيروان لإملاء الأدب والعلم منذ سن *274*هـــ/ *887*م؛ فارتحل إليه الكثير من أهل الأندلس للأخذ عنه والتخرج على يديه وكان منهم قاسم بن أصبغ البياني[43].

ممَّـــا ســـبق ذكره يتجلى بوضوح مدى الارتباط الوثيق الذي كان بين الدولة الرستمية في تاهـــرت والإمارة الأموية في قرطبة، وعلى الرغم من الاختلاف المذهبي إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون ربـــط علاقات سياسية واقتصادية وثقافية بين الدولتين، وهو الأمر الذي يبين رغبة الحكام في خدمـــة مصـــالح شعبيهما، ومن ورائها، مصالح الشعوب الإسلامية، وبخاصة في بلاد الأندلس التي كان تواجهه هجمات شرسة من قبل النصارى الطامعين في استرجاعها، وإخراجها من حظيرة العالم الإسلامي.

/////

---

(41) *نفسه ــ ص 124 ــ 125.*

(42) *المغرب العربي: تاريخه وثقافته ــ رابح بونار ــ ش.و.ن.ت ــ الجزائر ــ 1981 ــ ص 121 ــ 122.*

(43) *تاريخ الجزائر العام ــ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ــ ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) ــ دار الثقافة (بيروت) ــ 1402 هـــ ــ 1982م ــ ج1 ص 179.*

المصادر والمراجع:

1 ـ الأزهار الرياضية في أئمة ملوك الأباضية ـ البارونى ـ مطبعة الأزهار البارونية ـ ج2 ص 293.

2 ـ بلاد الجزائر ـ تكوينيا الإسلامي والعربي ـ ابراهيم العدوي ـ مكتبة الأنقلو مصرية ـ القاهرة ـ 1970 ـ ص 220.

3 ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذاري المراكشي ـ تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنسال ـ دار الثقافة ـ بيروت ـ 1400هـ/ 1980م ـ ج2 ص 63.

4 ـ تاريخ إسبانيا الإسلامية ـ ابن الخطيب لسان الدين ـ تحقيق ليفي بروفنسال ـ مطبوعات دار المكشوف ـ بيروت ط2 ـ 1956 ـ ص11.

5 ـ تاريخ افتتاح الأندلس ـ أبو بكر بن القوطية ـ تحقيق إسماعيل العربي ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ 1989 ـ ص 59.

6 ـ تاريخ الجزائر العام ـ عبد الرحمن بن محمد الجيلالي ـ ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر) ـ دار الثقافة (بيروت) ـ 1402 هـ ـ 1982م ـ ج1 ص 179.

7 ـ تاريخ المسلمين في الأندلس ـ السيد عبد العزيز سالم ـ دار المعارف ـ بيروت ـ ط1 ص 220.

8 ـ تاريخ المغرب الكبير ـ العصر الإسلامي ـ ج 2 ـ د. السيد عبد العزيز سالم ـ دار النهضة العربية ـ بيروت ـ 1981 ـ ص 569.

9 ـ ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك ـ العذري أحمد بن عمر بن أنس ـ تحقيق عبد العزيز الأهواني ـ مطبعة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ 1965 ـ ص 99 ـ 100.

10 ـ جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ـ الحميدي أبو عبد الله ـ تحقيق روحية عبد الرحمن السويفي ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ ط1 ـ 1417هـ ـ 1997م ـ ص 299.

11 ـ الحلة السيراء ـ ابن الآبار القضاعي ـ تحقيق حسين مؤنس ـ الشركة العربية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ ط1 ـ 1963 ـ ج2 ص 372.

12 ـ الخوارج في الأندلس ـ محمد مكي ـ مجلة الأبحاث المغربية الأندلسية ـ العدد الأول ـ تطوان 1956 ـ ص 172.

13 ـ الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي ـ محمد عيسى الحريري ـ دار القلم للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ ط3 ـ 1408 هـ/ 1987م ـ ص 187.

14 ـ طبقات المشائخ بالمغرب ـ الدرجيني أبو العباس أحمد بن سعيد ـ تحقيق إبراهيم طلاي ـ مطبعة البعث ـ قسنطينة 1384 هـ/ 1974م ـ ج1 ـ ص 46.

15 ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ـ ابن خلدون عبد الرحمن ـ دار الكتاب اللبناني ـ مكتبة المدرسة ـ بيروت ـ 1983م ـ ج7 ـ ص 270.

16 ـ العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ـ جودت عبد الكريم يوسف ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ 1984 ـ ص 127.

17 ـ المدن المغربية ـ إسماعيل العربي ـ المؤسسة الوطنية للكتاب ـ الجزائر ـ 1984 ـ ص 140.

18 ـ المغرب في بلاد إفريقية والمغرب ـ البكري أبو عبيد ـ نشر البارون دوسلان ـ مطبعة الحكومة العامة ـ الجزائر ـ 1857م. ص 70.

19 ـ المغرب في حلى المغرب ـ ابن سعيد المغربي ـ تحقيق زكي محمد حسين وآخرون ـ كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ـ القاهرة ـ 1953 ـ ج2 ـ ص 246.

20 ـ المغرب العربي: تاريخه وثقافته ـ رابح بونار ـ ش.و.ن.ت ـ الجزائر ـ 1981 ـ ص 121 ـ 122.

21 ـ المقتبس من أنباء أهل الأندلس ـ ابن حيان القرطبي ـ تحقيق محمود علي مكي ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ص 85.

22 ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ أبو العباس أحمد المقري ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ دار الكتاب العربي ـ بيروت ـ ج4 ص 28.

23 – Hist. De I'Espagne Musulmane- E.Levi provençal – ed G.P – Maisonneuve – paris – 1950 – T1 – P108